

مقال في المبعث

(بحث مقارنة بين المبعث في الحضارة المصرية

والمعتقد الإسلامية)

للدكتور حامد طاهر

أولاً: في الحضارة المصرية القديمة

استطاع المصريون القدماء — في إطار اهتمامهم الشديد بظاهرة الموت — أن يتوصلوا لفكرة حياة أخرى بعد الموت أو المبعث، وهي فكرة هامة، أصبحت بمرور الزمن ولموكت طويل جدا (حوالى 1500 سنة) عقيدة دينية، لها أصولها وطقوسها. يقول هنرى باستيد فى كتابه (فجر الضمير): " لا يوجد شعب قديم او حديث بين شعوب العالم احتلت فيه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم " [ص63]

وتقوم فكرة المبعث على أن الحياة الدنيا التى يعيشها الإنسان وتنتهى بالموت سوف تعقبها حياة أخرى تعود فيها الروح إلى الجسد وتجري فيها محاسبة كل إنسان على إيمانه أو كفره، وحسناته أو آثامه .

وقد أثبتت دراسة المصريين أن هذه الفكرة لم تظهر عند المصريين القدماء دفعة واحدة ، بل سبقها تاريخ طويل جدا من التطور الأخلاقي واستبطان أعماق الإنسان، حيث راح المصريون يفرقون في كيان الإنسان بين جسده الظاهر للعيان وبين باطنه ومركزه القلب الذي يشمل كلا من العقل والنفوس . وحينما يموت الإنسان تصعد هذه الأجزاء الباطنة إلى السماء ثم تعود إلى جسد الميت واحدة بعد الأخرى (بعد 7 أيام، أو 40 يوماً أو سنة كاملة) — ولهذا اهتم المصريون القدماء بقبور موتاهم وتحنيط أجسادهم مع وضع بعض الحاجيات الضرورية مع الميت من طعام وشراب ومقتنيات خاصة به، وكذلك بعض التعاويذ التي تساعد في رحلته إلى العالم الآخر.

والرحلة إلى ذلك العالم تبدأ بالحساب الذي يتضمن الوقوف أمام محكمة (مكونة من 42 قاضياً يرأسهم الإله أوزير). وأمام هذه المحكمة يقوم الميت بتقديم اعترافاته التي يفترض أن تكون صادقة ، والحكم عليها هو الذي يؤدي به إما إلى البراءة أو العقاب . وتمثل رسوم المعابد هذه المحاكمة بميزان دقيق جداً، توضع في إحدى كفتي ريشة طائر وفي الأخرى قلب الميت، حتى توزن أعماله الحسنة أو السيئة، وبالنسبة إلى الأشرار يتم إلقاء الواحد منهم إلى حيوان مفترس يقوم على الفور بتمزيق أعضائه وقذفها في مهوى الجحيم .

في بداية نشأة عقيدة (ما بعد الموت أو المبعث) كان يجري تقسيم الناس - كما كان الأمر عليه في الحياة الدنيا - إلى طبقتين: طبقة الملوك وكبار موظفي الدولة، وطبقة عامة الشعب، وهؤلاء الأخيرون يدفنون في قبور ضيقة جداً، يجلسون فيها المقرفصاء، بحيث تلمس ركبهم ذقونهم، أما الطبقة العليا فيتمددون على ظهورهم ويوضعون في توابيت حجرية تتوسط حجرات واسعة، ومزينة بالرسوم الملونة. لكن بعد مرور فترة طويلة من الزمن وضعف سلطة الملوك تساوى الجميع في الدفن وأصبحوا يتمددون على ظهورهم، بينما بقيت فقط مظاهر الضخامة مقتصرة على مقابر الملوك .

ومن نتائج دراسة المصريين أن عودة قوى الإنسان الباطنة (القلب - العقل - النفس) إلى جسده بعد الموت هي التي تجعله يصبح روحاً (با)، ويعود إلى الحياة مرة أخرى ممتلكاً جميع قواه التي تساعد على المعيشة. ومن خلال هذه الحقيقة يتبين عدم توصل المصريين القدماء إلى الاعتقاد بخلود الروح ، أو أنهم عبروا عنها بأنها (لا تفنى) أو آرائهم في (الخلود بعد الموت) [فجر الضمير ، ص 67].

وهكذا يبدو أن المبعث المصري يتوقف عند حدود معينة وهي المتمثلة في عودة المتوفى إلى الحياة في هذه الدنيا ، لكي يحيا فيها إما منعماً أو شقياً. كما يبدو بوضوح أن كل إنسان له (بعثه) الخاص به ، وهذا يعني عدم شمول المبعث للناس جميعاً، ودفعة واحدة ، وأخيراً فلا فناء لهذه الدنيا وإقامة عالم آخر يبدأ من جديد محتويا على الجنة الخالدة والمجيم الدائم .

وعلينا ألما نغفل في هذا المصدد الدور الذي قام به كهنة مصر القديمة سواء في تكريس عقيدة المبعث ، أو في تطوير مفهومها وتعديل بعض طقوسها.

وكما تبين الآن من دراسة المصريات القديمة أن الكهنة هم الذين كانوا وراء تأليف (كتاب الموتى) وهو عبارة عن حشد من التعاويذ التي كان يقرأون منها على رأس المتوفى أو يضعون بعضها في كفنه لكي تساعد على تبرير أفعاله أمام المحكمة. وسوف أقتصر هنا على مثال واحد مما كان يقوله المتوفى لهيئة المحكمة ، تأكيداً لمزاعمه واستعطافاً لأعضائها :

سلام عليكم أيها الآلهة

الذين في قاعة المصدق

والذين خلت أجسادهم من الخطيئة والكذب

والذين يعيشون على الصدق في عين شمس

أمام (حور) المساكن في قرص شمس

انظروا : إنني آتي إليكم بدون خطيئة ،

وبدون شر، وبدون ذنب

إنني أعيش على الحق، وأغتذى من عدالة قلبي

لقد فعلت ما يقول به الناس، وما يرضي الإلهة

وقد أَرْضِيتُ الإله بما يرغب فيه

فأعطيت الجائع خبزا ، والمعطشان ماء ،

والعريان لباساً ، ولمن لَّا أقارب له رمثاً

وصنعت قريباناً مقدساً للآلهة

وقرباننا من الطعام للموتى

فنجوني أنتم، واحموني أنتم

ولما تقدموا ضدي أية شكاية أمام الإله العظيم

لأنني إنسان طاهر المضم ، وطاهر الميدين

وأني من قال له كل من رآه : مرحباً ! مرحباً !

[فجر المضمير ص 277]

لكن ما يحسب للمصريين القدماء أن النظام الأخلاقي الذي أوجدوه بينهم في ذلك الزمن السحيق إنما قام على التفكير الطويل في منشأ الحياة وصيرورتها وتبين لهم أن الحياة الدنيا ما هي إلا معبر إلى حياة أخرى، وأن لتطهير القلب والباطن عمومًا قدسية قد تكون أسمى من القوانين التي تحكم الأفراد من الخارج، ولذلك راحوا يفتشون عن معايير الحق والخير ومسارب الشر والباطل، وهذا ما جعلهم يسبقون العالم القديم في تقدير قيمة المضمير وإعلاء شأنه في حياة الأفراد .

ثانيًا: المبعث في العقيدة الإسلامية :

في الإسلام ، يقوم الایمان على دعامتين أساسيتين : الایمان بالله الواحد، والایمان بالمبعث بعد الموت . والربط بين الدعامتين يتمثل في أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، ورازق كل حي ، والمعلم بكل ما يجري في الكون ، وأنه تعالى أوجد الإنسان ليكون خليفة له في الأرض، ودعاه بواسطة الرسل ، وبشتى المبراهين الحسية والعقلية لعبادته ، وحثه على عمل الصالحات ، واجتناب المعاصي التي حددها له . وقد جعل عمره في الدنيا محدودا وينتهي بالموت .

حياة الإنسان إذن فترة اختبار كما أنها ابتداء لمعرفة قدرته على مدى التزامه أو عدم التزامه بالتعاليم الإلهية . أما المبعث المعبر عنه بالقيامة أو الساعة فسوف يقع في (لحظة خاطفة) لا يعلمها إلا الله وحده . وبعده مباشرة تنتهي السماوات والأرض، ثم يحشر الناس جميعا، والجن أيضا ، إلى مكان شاسع وينتظرون حساب كل منهم ، حيث يحمل كتابا أو سجلا بكل ما فعله خلال حياته.

وهناك الملائكة الذين يعرفون جيدا التمييز بين أهل الجنة وأهل النار، فيستقبلون الأولين بالترحاب ، ويسوقون الآخرين إلى عقابهم في الجحيم .

من الآيات الدالة على ما سبق :

— (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) [الفرقان 2]

— (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميّتكم ثم يحييكم) [الروم 40]

— (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)

[الأنعام 117]

— (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) [البقرة 30]

— (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون) [الأنبياء 34]

— (وما أمر الساعة إلا كمنح البصر أو هو أقرب) [النحل 77]

— (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة

ليبلوكم أيكم أحسن عملا) [الملك 1،2]

الأمر إذن جد لنا فهو فيه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) [المؤمنون 115]. وبالتالي فإن كل إنسان مطالب بتحقيق إرادة الله من وجوده وهي: معرفته وعبادته، وتعمير الأرض، والتعامل مع الناس بالحسنى، والحفاظ على البيئة المحيطة به، وفي ذلك كله، عليه ألا يقطع صلته بالله الذي خلقه ورزقه، وهو الذي يميته ثم يحييه، لكي يبعثه ويحاسبه على كل ما فعله في هذه الدنيا. ومما يلاحظ هنا أن الضمير الأخلاقي ليس حاسة تعمل وحدها في داخل الإنسان، أو مرتبطة بالنظام الديني الذي كان مستقرا لدى قدماء المصريين، وإنما هو علاقة مستمرة بين الله والإنسان: فالله يعلم ويراقب، والإنسان يعمل وهو متردد بين قطبي الخوف والرجاء — الخوف من غضب الله، والرجاء في عفوهِ ورحمته.

وبالنسبة لطقوس الموت في العقيدة الإسلامية، يراعى تكريم جسد الميت فيتم غسله وتطهيره جيدا بالماء، ثم يوضع في كفن، ويفضل الإسراع بدفنه في قبر من التراب الذي منه خُلِق. أما روحه فتصعد إلى بارئها لتظل في مكان (غير محدد) حتى قيام الساعة.

وهنا استثناء وحيد للشهداء الذين يقتلون في المعارك فإنهم يدفنون كما هم — أي بدمائهم دون غسل — والمقرآن يقول (ولما تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموالا بل أحياء عن ربهم يرزقون) [آل عمران 169]

وفى يوم الحساب ، يحمل كل إنسان سجل أعماله في كتاب ، لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها . أما المؤمن فيمسك كتابه بيده اليمنى ، داعيا الجميع إلى قراءته وذلك دلالة على حسن مصيره ، وأما غيره من الكفار والمشركين والمنافقين فيمسكه بشماله أو يكون خلف ظهره ، مستجيرا مما فيه ومتمنيا عدم استلامه له!

وتبعاً لمظلة الرحمة الشاملة التي وصف الله بها نفسه ، فإن يوم الحساب سوف يتسع لغفران بعض ذنوب المؤمنين بمشيئة الله تعالى (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) [الحجر 49] ، وكذلك الاستجابة لشفاعة بعض الأنبياء تكريماً لهم أمام أقوامهم (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة 255] .

وبعد أن ينتهى الحساب ، يقوم ملائكة على الأعراف ، يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم التى على وجوههم ، فيستقبلون الأول بالترحاب والدعوات ، ويسوقون الآخرين سوقاً إلى مكانهم فى الجحيم [سورة الأعراف : 43 — 51] . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الخلود إنما هو لأهل الجنة ، أما أهل النار فبعض المؤمنين العصاة يمكن أن تشملهم رحمة الله وعضوه فينتقلون منها إلى الجنة بعد فترة معينة تكون تكفيراً لذنوبهم .

وعلى الرغم من تجاوز الحضارة المصرية القديمة مع شبه جزيرة العرب (لا يفصل بينهما سوى البحر الأحمر وصحراء سيناء) فإن فكرة أو عقيدة المبعث المصرية لم تصل — فيما يبدو — إلى عرب الجاهلية ، لأنهم عندما ظهر فيهم الإسلام أنكروا المبعث إنكاراً شديداً :

— (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) [الأنحل38]

— (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) [التغابن7]

— (وقالوا أتأذا كنا عظاما ورفاتا أتأنا لمبعوثون خلقا جديدا) [الإسراء49]

— (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) [الأنعام29]

ولهذا نجد القرآن الكريم يفيض — في العديد من آياته — في تأكيد المبعث وبيان أهميته بل وضرورته كجزء أساسي لعقيدة المسلم، وكنتيجة طبيعية ومنطقية لخلق الإنسان التي لا تكتمل صيرورته إلما به :

— (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء104]

— (وهو الذي يبدأ المخلوق ثم يعيده وهو أهون عليه) [الروم27]

— (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا) [المجادلة6]

— (قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم) [التغابن7]

— (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ) [يونس4]

ومن البراهين المحسوسة على إمكانية المبعث :

— (وآية هم الأرض الميتة أحييناها) [يس33]

— (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْمَبْعَثِ فَأِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ ...) [الحج5]

وهكذا فإن الذين ينكرون ويجادلون في عدم قيام الساعة أبعد ما يكونون عن الصواب :

— (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ إِمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) [الشورى18]

كما يؤكد القرآن في أكثر من موضع أنه تعالى (يخرج الحي من الميت)

[آل عمران 27، يونس 31، الروم 19].

أما تحديد القيامة ، أو مجيء الساعة فهو من أمور الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها . وقد طلب المشركون من الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، معرفتها فكانت الإجابة قاطعة :

— (يسألك الناس عن المساعدة قل علمها عند الله) [الأحزاب69]

— (يسألون عن المساعدة أيا نمرساها قل علمها عند ربى) [الأعراف187]

لكنه تعالى حذر الناس جميعا ، أمواتا وأحياء ، من هولها :

— (إن زلزلة الساعة شء عظيم) [طه15]

— (والمساعة أدهى وأمر) [المقمر46]

كما أنها ستكون مفاجئة ، وفى لحظة خاطفة :

— (وما أمر المساعة إلما كلمح البصر أو هو أقرب) [النحل].

ومن القصص ذات الدلالة المؤكدة للمبعث ما ذكره القرآن الكريم عن الأشخاص الذين داموا بإرادة الله لسنوات طويلة ثم أيقظهم ليثبت بحالتهم إمكانية المبعث التى تشبه الاستيقاظ من النوم ، ومن ذلك :

— الرجل الذى مرّ على قرية مهجورة وتساءل: كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟

فأما الله الملة مائة عام ثم أيقظه ! [البقرة 259]

— والفتية الذين فروا بإيمانهم من عسف قومهم إلى الكهف ، فلم يوقظهم الله تعالى إلا بعد 309 سنوات ؛ وأصبحوا آية من آيات قدرة الله على المبعث ، انظر [سورة الكهف 9 — 21]

— وإبراهيم ، عليه السلام ، الذى سأل قائلاً : (رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال أولم تؤمن ؟) قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم [البقرة 260]

من نتائج المقارنة :

أولاً : أن عقيدة المبعث لدى المصريين القدماء تستند إلى تعدد الآلهة وتنوع تخصصاتها، في حين أن العقيدة الإسلامية تعترف بالله الواحد الذى خلق الكون بقدرته ، وهو القادر وحده على حفظه وإعادته .

ثانيا : أن المبعث في العقيدة المصرية فردي، أي مختص بكل إنسان على حدة، في حين أنه في العقيدة الإسلامية فردي وشامل: فردي لكل إنسان وشامل لجميع البشر.

ثالثا: أن المبعث في العقيدة الإسلامية يشمل الإنس والجن، بينما تخلو العقيدة المصرية من أى إشارة إلى الجن .

رابعا: أن عقيدة المبعث المصرية لا تتحدث عن عالم آخر يتلو هذا العالم الدنيوي بعد فئاته، لذلك فإنها تعيد الإنسان المتوفى إلى الدنيا لكي ينعم فيها أو يشقى تبعاً لأفعاله .

خامسا: أن الحساب النهائي في العقيدة الإسلامية يقع في ساعة محددة في يوم واحد، بينما هو في العقيدة المصرية متناثر في أوقات مختلفة تبعاً لوفاة كل شخص .

سادسا : أن المبعث في العقيدة الإسلامية يتحدث عن (خلق جديد)، يكون بالطبع قابلاً لأنواع النعيم الخالد في الجنة ومتقبلاً صنوف العذاب المريع في الجحيم، بينما تظل العقيدة المصرية دائرية في فلك الحياة الدنيا فقط .

أهم المصادر والمراجع :

— القرآن الكريم

— المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للمرحوم محمد فؤاد عبد الباقي

— فجر المضمير لهيرمان ، ترجمة د.سليم حسن
